

الفارق ان نزعة الشاعرة هنا ليست دينية مطلقة ، وروحية غير محدودة ، كما هي لدى المتصوفة ، بل نزعتها هذه ردة فعل مرضية مضطربة وقابلة لان تكون متناقضة . فالجسد الذي يدور في توفه الدائم الى الحياة ، دون ان يخرج عن دائرة هذا التوق ، قد ينحرف فيزج في محراب لا علاقة له به ، الا من حيث هو اداة للذلال الذاتي ، وماسوكية جارحة .

وكما تواجه الشاعرة « الموت » باعتباره قدرا ميتافيزيقيا ، كذلك تواجه الظواهر الاجتماعية ، معتمدة فحسب على هواجسها « الروحية » السجينة في جسدها الهالك . فهي تناجي قوى القضاء الغامض المبهم ، التي تجثم وراء الفضاء :

من يطر الرزق على ذي الرثاء ويسك الرزق من المعدم ؟

وهي بالرغم من اعترافها في القصيدة ذاتها على ان الامر يتعلق بظلم البشر في الارض . الا انها لم تجد وجهة للمناجاة الا فيما « وراء الفضاء » . وهذه الوجهة الماورائية تتكرر في جميع قصائدها ، حتى المتأخرة منها ، والمتصلة بموضوع يعتبر دون شك من ابعاد المواضيع عن الرغبة « القدرية » الغامضة ، وهو موضوع الاحتلال العدواني الاسرائيلي ، في فلسطين — وسنرجي التعليق عليه الى حين الاشارة الى مجموعتها « الليل والفرسان » .

ان التناقض النفساني الذي يخلفه توق الجسد الى الحياة ، وانكساراته الناتجة عن الكبت الاجتماعي ، يجد مداره في دائرة « الموت » . هذه الدائرة التي تشكل تطهيرا داخليا سلبيا . ونزعة الشاعرة فدوى هذه تبدو منطقية ، الى ان تبدأ مرحلة استلهاهما ، كحجة ، من موت أخويها « ابراهيم » و« نمر » ، فنتحول ، حينها ، الى مرحلة « الرثاء » ، التقليدي الذي تطمس فيه ذلك الوجع القديم ذا السمة الميتافيزيقية الصرفة . وهذا التحول يتلف ، بوضوح ، امكانية تلك النزعة الى النمو والنضج ، بحيث تستطيع ان تصبح رؤيا فلسفية متكاملة .

لقد اصبحت الشاعرة ، بحجة عائلية ، شاعرة « رثاء » تطمح ان تراث « الخنساء » ، ذلك الارث الذي لا يملك ان يصبح عصريا ، وانتهت فيها تلك « المقدمة » التي كانت ترى فيها الموت — كما يراه الشاعر « بيتس » ليس الا انتقالا من غرفة الى اخرى . غير ان كونه خاتمة الحياة والوجود المادي وما هو معروف ومدرك ، يفعمه بمغزى هائل .

في مجموعة « امام الباب المغلق » ، عدد من القصائد الى شقيقتها « نمر » ، نستطيع من خلالها ان نتلمس « الموت » الذي كان فيما مضى هاجسا . بالرغم من ان هذه الانعطافة قد بدأت منذ « وحدي مع الايام » وفي القصائد التي قدمتها الى شقيقتها « ابراهيم » . واصبح عاملا وسببا للندب والشكوى . علاماته : المفقود الذي ذهب دون عودة ، والقبر المائل بصمت ، والماتم في حضوره المستمر ، والوحشة المتبقية ، حيث لا نصير بعد ولا ظهير ، سوى ذكرى باقية لا تغني :

« آه يا قبرا له اشمعاع نور
لا ارى اجمل منه في القبور !
فيك دنياي ، وفي قلبي الكسير
ماتم ما انفك مذبات لديك
قائما ياخذ منه بالوتين »
« واذا ينزف دمع المقل
يجهش القلب اسي ما ياتلي
نادبا عندك اغلى امل
باكيا فيك نصيري وظهيري